ظل جستنيان بعد وفاة ثيادورا على وفائه بعهدها لفترة طويلة واستمر في إصلاحات كانت تنادي وتقوم بها، وهي بذلك تعد من أفضل السياسيات اللائي أنجبتهن الإمبراطورية البيزنطية؛ حتى وإن لم تكن هي الإمبراطورة رسميًا.

ثيادورا وجستنيان الأول

ثيودورا.. أشهر من حكمن بلا حكم

كانت ثيادورا زوجة الإمبراطور جستنيان أشهر أباطرة الدولة البيزنطية في القرن السادس الميلادي، وما كتب عن هذه الإمبراطورة في الأعمال الأدبية قصص تكاد تكون من نسج الخيال، فالمعروف عنها أن جمالها كان مبهرًا، وأنها نشأت في بيئة متواضعة، وكانت تعمل في بداية حياتها كراقصة وغانية لتكفل نفسها، ويقال ممثلة في سيرك، وفي روايات أخرى راقصة غجرية تجوب الشوارع، حتى لفتت نظر أحد رجال الدولة فاتخذها عشيقة له لعدة سنوات، فرَّت منه ومرت عبر أراضي الإمبراطورية البيزنطية منها مصر، حيث عملت في غزل الصوف إلى أن وقعت أعين جستنيان ولي عهد بيزنطة عليها في إحدى المناسبات، فأولع بها وأحبها حبًّا جمًّا، وتزوجها بالفعل ضد كل قواعد القصر، بل وتعامل مع أولادها على اعتبارهم من الأسرة المالكة.

هذا ما ورد في الروايات الأدبية عن ثيادورا ولكن كان للمؤرخون رأي آخر عنها، فيقولون: ولدت ثيادورا في مدينة منبج في مطلع القرن السادس ولم يذكر المؤرخون الكثير عن حياتها الأولى فكل ما كتب عنها يتحدث عن فترة كونها قيصرة، ووالدها قسيس سرياني أرثوذوكسي رباها تربية صالحة.

ويصفها المؤرخ الرَّهاوي بقوله: كانت ثيادورا فتاة رائعة الجمال زينها الله بمحاسن الجسم والنفس.. وبفضل ذلك ذهبت لها شهرة واسعة في مدينتها فنظر إليها مواطنوها نظرة احترام.

أما زواجها من القيصر جستنيان فقد تحدث عنه المؤرخون السريان بوضوح وصراحة، وقالوا: مرَّ جستنيان بمنبج، وهو في طريقه إلى محاربة الفرس، فبهرته أخبار جمال ثيادورا وفضائلها وذكائها فقرَّر الزواج منها، وطلب يدها من والدها، فلم يوافق القسيس على هذا الزواج إلا بعد أن عاهده الملك عهدًا وثيقًا بأنه لن يجبرها على تغيير مبادئها الإيمانية.

وكان الدستور البيزنطي يخوِّل للإمبراطورة جميع الحقوق التي يتميز بها الإمبراطور نفسه، ولذلك نجد جستنيان قد منح صلاحيات عظمى لزوجته، وسلَّطها على كل شيء، وكان لها حق في النظر في جميع شئون البلاد، حتى يصفها بعض المؤرخين بأنها كانت إمبراطورة مطلقة.

وإن كانت اختلفت الروايات حول أصل ونشأة ثيادورا بين روايات الأدب والمؤرخين إلا أن دورها في الإمبراطورية البيزنطية كزوجة للإمبراطور جستنيان لها دور واضح في إعانة زوجها لا خلاف عليه.

فيذكر المؤرخون عنها أنها كانت ذات حكمة وصلابة وشجاعة، استطاعت فرض احترامها على الجميع، وكانت تكاتب سفراء الدولة وترشدهم إلى السلوك القويم.

وكانت شديدة الحرص على الأخلاق العامة في العاصمة وخارجها، فحاربت الرذيلة، وكانت تعاقب بذاتها الزوجات الخائنات لأزواجهن، وكانت تصدر الأوامر للمستهترات بالعودة إلى حياة الفضيلة وتربية الأطفال تربية صالحة، إلى جانب هذا كله كانت علاقتها بزوجها علاقة مميزة، كما عرف عنها تدينها.

وعند تعيين جستنيان إمبراطورًا في عام 527م، كانت ثيودورا بالفعل أقوى نفوذًا عليه، وكان لها دورها المباشر في إدارة الإمبراطورية

سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، حيث إنها كانت امرأة ذات رؤية سياسية واسعة، وتجلَّى دورها في ثورة «النيكا Nika» عندما تعرضت القسطنطينية لتمرد وثورة عارمة في 532 تزعَّمتها طائفتا «الزرق» و«الخضر»، اللتان مثَّلتا أطيافًا وطبقات اجتماعية مختلفة.

وقد طالبت هذه الحركة القوية بالتخلُّص من الإمبراطور جستنيان لصالح أمير آخر في البلاد، وبدأت بالفعل حالة من القلق تنتشر في القسطنطينية وبين الإمبراطور وبعض جنرالاته، حتى قرروا الهروب الفوري من خلال الإبحار ليلًا للنجاة من الثوَّار، ولكن ثيادورا كان لها دورها المهم في التصدِّي لزوجها وجنرالاته وإقناعهم بضرورة البقاء وعدم التخلي عن الحكم بل وتحسين إدارة البلاد، ولولا تدخلها لعاش جستنيان طريدًا باقي عمره، وما كان له أن يبدأ قصة عملية الإصلاح التي بادر بها بدعم من زوجته.

وقد لعبت ثيادورا دورًا مهمًّا للغاية في إعادة بناء مدينة القسطنطينية مرة أخرى بعد الدمار الشامل الذي لحقها، ثم كان لها دورها البارز في السعي للتوفيق بين المذهب الأرثوذكسي والمذاهب الدينية المسيحية المنادية بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ومنهم الأقباط، كما أنها لعبت دورًا مهمًّا للغاية في مسألة حقوق المرأة وكفالتها، إضافة إلى دورها البارز في تجميع القوانين الرومانية فيما عرف بـ«كود جستنيان»، بل ويقال إن بعد موتها ظلَّ جستنيان على وفائه بعهدها لفترة طويلة واستمر في إصلاحات كانت تنادي وتقوم بها، وهي بذلك تعد من أفضل السياسيات اللائي أنجبتهن الإمبراطورية البيزنطية، حتى وإن لم تكن هي الإمبراطورة رسميًّا.